أنواع السيّر الذاتية:

أ- "**السيرة التاريخية التسجيلية**"[2].

ظهرت روايةُ السيرة الذاتية منذ زمنٍ في تاريخ الأدب العربي الحديث، فقد استخدمَ روادُ الروايةِ المصرية مادة حياتهم الشخصية ليصنعوا منها مادةَ رواياتهم الأولى، وليعبروا بها عن ذواتهم الفردية والاجتماعية في واقعٍ معيشٍ محدد بزمان ومكان، يستحضر فيه الماضي والحاضرَ والمستقبل، وهذا ما يجعل لمادة التاريخ حضوراً متميزاً وفاعلاً لمنهج رواية السيرة الذاتية، وبهذا فإن صاحب رواية السيرة الذاتية يعتمد على المادة التاريخية اعتماداً كلياً في ثَبْتِ الأحداث والوقائع التي يبدأ بتسجيلها، إذ إن فن السيرة الحديث يختلف تماماً عن السيرة في السابق، "فالسيرةُ الجديدةُ راحت تبحث وراء الوثائق والشهادات لتكتشف حقائق أخرى من تلك الحقائق، ولتخرج بأمور أكثر قرباً لتلك الشخصية، تساعد على فهم

الشهادة نفسها أو الحقيقة التاريخية، فهماً آخر، لقد نقل هذا الفهم الجديد، البيوغرافي، إلى فهم أوسع"[1].

لكن على الرغم من الاختلاف ما بين القديم والحديث وهذا طبيعي، تبقى العلاقة وطيدة ما بين السيرة والتاريخ، فالسيرة نشأت في كنف التاريخ، وترعرعت في أحضانه حتى العصر الحديث، وأصبح الحضور التاريخي يتجلى في عرض تتابع التجارب، وتكاملها وانعكاس الأحداث، ونمو المواقف، "إن إنساناً بلا ماض وجود بلا هوية، وأمة بلا عمق تاريخي ووعي به أحداث ووقائع لا لون ولا طعم ولا رائحة لها"[2].

فقد جاء الارتباطُ الوثيقُ بين السيرة والتاريخ، لتسجيل تلك الوقائع والأحداث المهمة والمتميزة في حياة الأفراد منذ القدم. يكادُ يجمعُ معظمُ الكتاب على أن كتابة السيرة الحديثة بدأت تأخذ منحى آخر من كتابة السيرة السابقة، "وكانت العنايةُ بالجانب التاريخي والأخلاقي ترد على حساب ضعف الجانب الفني، ولهذا السبب لم تعرف كتابة السيرة في الأدب العربي النضجَ ولا التكاملَ في استيفاء شروط الكتابة الفنية ومقوماتها إلا حديثاً"[3]

وعودة إلى ماهية السيرة الذاتية، للدلالة على العلاقة القائمة ما بين التاريخ والسيرة الذاتية، فهي تأريخ حياة إنسان كتبها بنفسه، مؤكدة حياته الخاصة في سَبْرِ أعماقه الفكرية، ودوافعه ومشاعره الذاتية، وهذا يؤدي بنا إلى القول: إن السيرة الذاتية تتكون من الأدب والتاريخ وذلك لأنها تتعلق بالحياة البشرية المهمة في ماجريات الأحداث التاريخية، مسجلة

التفاصيل الأساسية من تفاعل العواطف الإنسانية بعضها مع بعض، وذلك عن طريق سرد منطقي لحياة كاتبها الخاصة.

إذن هي قصة حياة شخص؛ ترجمة لحياته الداخلية؛ تجارب شخصية حقيقية؛ تثير الرغبة في الكشف عن عالم مجهول؛ وهي خلاصة السنين، من تجارب، ومآسٍ، وأفراح، واقعية ووجدانية، نجد هذا في مقولة "سومرست موم M-Somerset" (1874ــ1965) في مقدمة سيرته الذاتية: "ولست أرمي إلى تدوين سيرة حياتي في هذه الأوراق أو إلى تسطير ذكرياتي، فقد عملت بطرق مختلفة على أن أورد في مؤلفاتي ما جرى لي في خضم هذه الحياة"[1].

إن السيرة الذاتية فن قائم بذاته، "تتشابه مع الفنون الأدبية الأخرى في العناصر الفنية المكونة له وتتداخل أحياناً أخرى مع تلك الفنون"[2]، لكن استقلاليتها تكمن في طرحها الجاد للموضوعات، وبعدها عن الخيال. وفي هذا الخصوص يقدم لنا إحسان عباس، خلاصة مفادها: "إن السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمد من الخيال، بل هي أدب تفسيري، وهذا النوع من الأدب كالأدب الذي يُخْلَقُ خلقاً، من حيث أن صاحبه معنيّ بغاية محدودة تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق، وهو كالروائي والقاص أيضاً، يحاول أنْ يكشفَ عن الصراع بين بطل سيرته والطبيعة، وصراعه مع الناس والآخرين ومع نفسه وهو يحاول أن ينقل إلى القراء حقيقة ذات قبول عام... "[3]، بهذا السياق يتم التداخل ما بين عمل كاتب السيرة، وصاحب

السيرة الذاتية، وقربهما من دور الناقد الأدبي في تبيين الغث من السمين، ونستدل على ذلك بمقولة "سانت بيف[1] Saint-Bef" (1824ــ1869): "إنَّ المهمةَ الأولى والأخيرة للناقد هي أنَّ يقرأ، فيفهم، فيحب ويقدر، ثم يسهل للآخرين ما قرأه وما فهمه وما أحبه"[2]. إذ ينطبق هذا القول على كاتب السيرة الذاتية وخاصة الحديثة منها، بدليل أن: "السيرة ما عادت حقائق وأحداثاً تاريخية، ما عادت علاقات، وما عادت رسائل وأخباراً، بل صارت ذلك كله ومعه العناصر المكونة الجديدة"[3].

ب ــ "السيرة الذاتية الأدبية"[4].

أدبُ السيرة الذاتية هو فنٌ من فنون الأدب العربي الحديث، يعبر به عن تجربة ذاتية فردية يكتبها الفرد بنفسه، في تأريخ للأحداث الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو السياسية، للمكان والزمان، لكن لاعتبارات عدة لوحظ أن العديد من الكتاب ــ أصحاب التجربة الذاتية ــ يجنح إلى كتابتها بأسلوب روائي واقعي، يدل تالياً على صاحب العمل نفسه[5].

إن توظيفَ السيرةِ الذاتيةِ بكاملها، لتكونَ رواية، أمر مستحيل، لأن السيرة الذاتية موضوعٌ صغيرٌ، يمكن أن تزخر به الرواية، لكنها موضوع له حدوده ومقوماته، لا يمكن أن يكون رواية، كما أن الرواية لا يمكن أن تكون سيرة ذاتية، مهما كان الأمر، فالسيرة الذاتية الشخصية فيها أحادية تختزل الثلاثة في واحد ــ التطابق ــ أما الرواية ثلاثية: الكاتب والراوي والبطل، وتستوعب العلوم والفنون: "ولا تنفصل عن ذلك الواقع في الوقت نفسه.

وفي الإطار نفسه تتبلورُ روايةَ التكوّن الذاتي، وهي وثيقة الصلة برواية السيرة الذاتية، وإن كانت أكثر انشغالاً بما يدور في أعماق الشخصية من تفاعلات تؤدي إلى ارتقاء الشخصية"[1]، لهذا يرى جابر عصفور أن كتابة رواية السيرة الذاتية تحرر الكاتب من قيود كتابة السيرة الذاتية: فالرواية عمل خيالي في نهاية الأمر وتملص الكاتب من أية مشابهة بينه وبين إحدى الشخصيات مسألة ممكنة، فضلاً عن أن القالب الخيالي للرواية يتيحُ للكاتبِ الحديثَ عن المحرمات التقليدية دون حرج: الدين والسياسة والجنس... لذلك يعد الشكل الروائي في كتابة السيرة الذاتية من أرقى الفنون التي تستعين به السيرة الذاتية لكتابتها، وذلك بفضل تواجد عنصرِ الإبداعِ والخيالِ الفني، والمتتبع لأبرز السير الذاتية وأميزها يجد فيها الكثير من الأسلوب الروائي، وقد أفصح "جورج ماي G-May" عن هذا، بالقول: "ذلك أن معظم السير الذاتية المنتمية إلى ما يمكن أن نصطلح عليه بعصر السيرة الذاتية الذهني، قد اتخذت من الرواية مثالاً لها"[2].

هناك إذن، علاقةٌ للسيرة الذاتية بالرواية يصعب الفصل بينهما، فقد تجد عنصراً مفارقاً في علاقة هذا الشكل بالشكل الآخر ولكن الحدود الفاصلة قد لا تبدو مطلقة ونهائية، وعلى الرغم من أن النظرية الأدبية تبيحُ التداخلَ ما بين الأجناس الأدبية، فإن العلاقة ما بين السيرة الذاتية والرواية أكثر التباساً، فكثيراً ما ينظر إلى الرواية على أنها سيرة ذاتية، وبذلك فأن: "كلا النوعين من النصوص ينتمي إلى الجنس الأدبي نفسه، وهو مشروع السيرة الذاتية (أو المشروع الأوتوبيوغرافي)، الذي يعتبر ملمحاً عاماً للحساسية الجديدة وللإبداع الجديد؛ فالكاتب يشعر بأن صدقه الخاص لا يمكن أن يتحقق إذا هو قَيَّدَ خياله الخلاق بشكل أو شكلين

ن الكتابة؛ إذ إنه لكي يقترب من ذاته لا بد من الأسلوبين الواقعي والخيالي"[1]. وقد ظهرت
جناسٌ وسيطةٌ ما بين الرواية والسيرة الذاتية، شأنَ روايةِ السيرة الذاتية أو السيرة الذاتية
روائية، هذه المسمياتُ توظِّفُ أساليبَ سردية متشابهة سعى منظرو الأدب إلى البحث عن
حدود الفاصلة للتمييز بينها، ولذلك ستظلُّ هناك إشكاليةٌ ما بين الروايـــة والسيرة الذاتية
جب التنبه إليها، لكن على الصعيد الحالي نجد أن المهتمين بهذا الخصوص، قد بينوا أن عقد
قراءة هو الحكم الأساس للتمييز بين الرواية والسيرة الذاتية، لهذا لوحظ أن: "هناك صعوبة
ساسية في أي محاولة منهجية لتصنيف الأدب الشخصي بخصوص علاقة السيرة الذاتية
لرواية: كيف يمكن التمييز بين النوعين؟ الإجابة عن هذا السؤال الإشكالي في هذه الدراسة
م عن طريق تعريف "عقد القراءة"، "The Reading Contract" الخاص بالنص"[2].
لميثاقُ الروائيُّ يظهرُ فيه الخيال كثيراً على العكس من السيرة الذاتية التي تعتنق الحقيقة
ئماً، "ولما كان نضج الرواية سابقاً في الزمن على نضج السيرة الذاتية، فليس لنا أن
ستغرب من أن تكون السيرة الذاتية قد أخذت عند نشأتها الطرائق السردية التي سبق أن
عتمدت في كتابة الرواية"[3].

حدد "فيليب لوجون P-Legune" بهذا الخصوص جنس السيرة الذاتية، لتفريقه بين
لأجناس الأخرى، وأعاد النظر في أطروحته المتعلقة بهذا الجنس، ونقد منهجه في كتاب آخر
لميثاق السير ذاتي" ووضع حدوداً أربعة لجنس السيرة الذاتية على اعتبار أنها جنسٌ قائمٌ
عد ذاته، هي: شكل اللغة، فالسيرة الذاتية هي قصة نثرية؛ الموضوع المطروق، وهي تروي

حياة فردية وتاريخ شخصية معينة؛ وضعية المؤلف، إذ لا بد من التطابق بين المؤلف والسارد؛ تطور الحكي، باعتباره حكياً استعادياً استرجاعياً بالضرورة؛ وبذلك حوَّلَ دراسةَ الأدب إلى ما يشبه المعادلات العلمية الصارمة، تنفي الاختلاف والتنوع والفرضيات الممكنة، وتعوزها المرونة اللازمة التي تنظر إلى الإبداع الأدبي على انه متطور ولا يستقر على حال. يعتبر "فيليب لوجون P- Legune" المعايير السابقة محددةً لجنس السيرة الذاتية، ولكن غياب معيار واحد منها أو أكثر، يُخرِجُ الأثر الأدبي عن مساره المطلوب ليفضي إلى مسار آخر[1]

من هنا، فإن السيرة الذاتية بوصفها جنساً سردياً ظهر بعد الرواية، وطبيعي أن يفيد هذا الجنس من إنجازات الرواية الفنية إفادة كبيرة، وهذا سبب التداخل بين الجنسين الذي أحدث التباساً لدى بعض الكتاب، وإن من أنجح السير الذاتية هي التي يكتبها روائيون؛ لأنهم يدخلون بها من موضوع عام إلى موضوع خاص، لهذا جاءت السيرة الذاتية في القرن العشرين نصوصاً فنيةً متكاملة، وذلك نتيجة لوعي كتابها الفني بإشكاليات الجنس الأدبي، وامتلاكهم للأساليب الفنية التي ارتقوا فيها إلى أعمال فنية كبرى، فتوظيف العناصر الروائية والإنشائية لفائدة السيرة الذاتية، وَرَبْطِ الحياة الخاصة والعامة في سيرة المؤلف، كلها موضوعاتٌ ذاتُ علاقةٍ وثيقة بطبيعة هذا الجنس الأدبي، وهذا يعني أن المادة الحكائية التي تصنعُ السيرة الذاتية، تخضع لضرورات الفن: "إن السيرة الروائية تحاول الكشف عن الأسرار التي تكتنف حياة شخصية معينة، من خلال تفاعلها بالمحيط الاجتماعي، والعلاقات الإنسانية، وتطورها الذاتي، متوسلة بأسلوب السرد، والسيرة الذاتية تقوم على مثل هذا الأساس غير أن السيرة الروائية تعتمد في الوقت ذاته على عدم التطابق بين شخصية المؤلف

المذكور على الغلاف والشخصية التي تشكل موضوع النص"[1]، وهذا ما يفرق بين الرواية والسيرة، والسيرة الذاتية، حسب رأي "لوجون P-Leugon"[2]. وأن السيرة الذاتية التي تتناول موضوع الطفولة، هي الأكثر صلة بالرواية من السيرة الذاتية الكاملة، يضعُ الكاتبُ عالماً بديلاً ويجعله مقنعاً، كما في: "حالة سطور من حياتي"، تدل على عمل غير أدبي، لأنها تقريرية، وصور كثيرة للمؤلف: وثيقة تاريخية الاقتباس من قصائد كثيرة لشعراء عرب مختلفين يوحي بأن العمل من أعمال التاريخ الأدبي أو النقد. وسطور من حياتي تمثل خليطاً من السرد الأدبي وغير الأدبي.

وهكذا، فإن الرواية بشكلها العام، تعتبرُ من الأجناس الأدبية الأكثر قرباً من السيرة الذاتية، التي تستعين بها لأداء ما يميزها في البناء الفني، إذ يوجد تداخل كبير بينهما، وتساعد الرواية السيرة الذاتية في عملية التخييل الطبيعي (الواقعي)، لجنس الرواية الأدبية.